الشعب ـ البطل في التاريخ

بين « أم سعد » غسان كنفاني و « عجوز » أفنان القاسم*

الدكتور فيصل دراج

« الفن معلم من حيث هو فن وليس من حيث هو فن معلم »

غرامشي

الشروط التاريخية لانتاج العمل الادبي :

على الرغم من خصوصية العمل الادبي فانه لا يمكن أن يرى خارج سياق تاريخي محدد ، فالنص الادبي من خلال أدبيته يعكس الواقع التاريخي ولا يصنعه ، وهو لا يعكس شروطا غائبة أو لم تولد بعد بل يعكس شروطا قائمة ، وهو بأدبيته نتاج وانعكاس لها. فليس الادب الفلسطيني « الثوري » هو الذي خلق المقاومة الفلسطينية بل ان هذا الادب بكل اتساعه وحدوده وليد للمقاومة ، كل هذا على الرغم من الدور التحريضي الذي يمكن أن يلعبه الادب . ولا يمكن أن نرى النص الادبي بمعزل عن التاريخ الذي صنعه ، بل ان هذا التاريخ بكل تميزه يكمن في كل احضان العمل الادبي . وعلى هذا فان كل انتاج أدبي هو في الوقت ذاته انتاج أدبي ـ تاريخي . ان نقد بوليتزر للتحليل النفسي الذي أراد أن « يشرح التاريخ بالتحليل النفسي وليس التحليل النفسي بالتاريخ »(١) يصلح أيضا لتطبيقه على الادب ، فهذا الاخير على الرغم من أدبيته لا يمكنه أبدا أن يتمتع باستقلال ذاتي مطلق وبوجود لا تاريخي ، فالنص الادبي ليس نتاج « الاسطورة الشخصية » للمؤلف لكنه التجسيد لميكانيكية الانتاج الادبي من حيث هي عملية انعكاس لشروط تاريخية ـ اجتماعية محددة « فالرواية لا تخرج من التخيل الفردي بل من الواقع الاجتماعي ـ التاريخي » .

ورغم انه يمكن التكلم عن التأريخي في الرواية L'historique du roman الا ان الاديب ليس مؤرخا بالمعنى الدقيق للكلمة لانه لا يعكس في عمله الا ظواهر الحركة التاريخية وليس القوانين الداخلية المحركة لها . ضمن هذا الاطار تعتبر الرواية نتيجة لفاعلية حاضرة مستوعبة لماض محدد لمجتمع معطى . ونؤكد من جديد أن النص الادبي لا يمكن أن يرى الا كانعكاس للواقع بمركباته الاجتماعية ، فالادب « لا يهبط من السماء » وليس نتاج « ابداع » غامض لا يدرك كنهه ، او فاعلية « متخيلة imaginaire » على الرغم من أنه ينتج آثارا خيالية .

---

* العجوز رواية لأفنان القاسم ظهرت عن مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام في العراق مع مقدمة للمستشرق ريج .